هذا المؤلف الإيطالى لم ير الرئيس السادات . ولكنه تابع ما يقوله وما تنشره الصحف العالمية عنه .

ومن هذه المتابعة العالمية الدقيقة اهتدى إلى مفتاح شخصيته . .

أما هذا المفتاح فهو الرئيس بتكوينه النفسى والسياسى رجل يتحدى الظروف ويتغلب عليها . .

فهو ريفى عادى ، وكل الظروف لا تسمح له بأن يكون إنسانا بارزا . . وإنما كل الظروف قد عاكسته ، حتى لم يكن قادرا على أن يكمل تعليمه .

فهو الريفى الذى قاد كل الريف والمدن إلى النصر العظيم . .

وهو السياسى الذى لم يتوقع له أحد أن يكون نجما لامعا . . وإنما استهان به كل زملائه . .

وهو الذى استطاع أن يتحدى مراكز القوى وأن يدوسهم . .

وهو الذى تحدى الوجود السوفيتى وكان أول خروج السوفيت من أى بلد فى كل تاريخهم . . وهو ما لم يستطع أن يفعله أى حاكم فى أى عصر . .

وهو الذى تحدى المخابرات الأمريكية والإسرائيلية وأخفى أسرار حرب أكتوبر . . ثم إنه تحدى كل الظروف الاقتصادية والعسكرية ، فكان له النصر فى النهاية . .

إن أهم معالم الرئيس السادات أنه قادر على أن يتحدى وأن يتصدى . . وأن ينتصر ●

تحدى مراكز القوى
وقوات العدو التى انتصر عليها !

موسى بدوى

■■ لقد وضع أنور السادات كل مقدرات بلاده ومصيرها فى كفة الميزان ، يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، بعد أن خطط لحرب ظافرة قصيرة المدى ، يستطيع أن يخرج بها بمصر ، من ذلك الشلل الذى كبلها ، والجمود الذى لقيت نفسها فيه عدة سنوات . .

وهو اليوم يواجه « برنامج السلام والتحرير » ، الذى يقتضيه أن ينقل من أجل تحقيقه كل دبلوماسيته ، وكل خبرته فى عالم السياسة والأتباع .

إنه انتصر على التحدى الأول ، رغم صعوبته البالغة . فهل يتغلب على التحدى الثانى ، الذى لا يقل صعوبة وإرهاقا ؟

● هذه فقرة من هذا الكتاب ، تكاد تلخص الفكرة التى يدور حولها ، وإن كان فى الحقيقة يتضمن سردا تاريخيا للأحداث التى وقعت فى منطقة الشرق الأوسط فى الفترة التى امتدت من الهزيمة العسكرية التى وقعت للعالم العربى فى حرب عام ١٩٦٧ ، حتى مطلع العام الحالى ، مع تعليق وتفسير لها من وجهة نظر غير عربية . انت بالموضوعية الطلقة . ولو أنها تنبع من كاتب متخصص ومتعمق فى شئون هذه المنطقة من العالم . ليس فى ماضيه الطويل ما يدل على أنه قد اتخذ من العرب أو من مصر ، لا موقف الود ، ولا موقف الاعتدال .

ولولا أن أعرف هذا الكاتب معرفة شخصية ، وتتبعت كتاباته كلها عن مصر والعالم العربى واسرائيل طوال ما يقرب من عشرين عاما ، لما دار فى ذهنى أنه هو نفسه مؤلف هذا الكتاب ، الذى يكشف جوانب كثيرة من عظمة التحول الذى طرأ على القضية العربية فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، فكان بمثابة عودة الروح ، إلى جسد كاد اليأس يتملك منه بصورة نهائية .

لكنى أرجعت ذلك إلى الدراسة والفهم والإدراك . وهى الأمور التى لا بد أن يكون دينو فرسكوبالدى قد التزم بها قبل أن يشرع فى تأليف كتابه . فكانت هى دليله إلى الوصول إلى حقائق المشكلة التى تناولها ، وإن كانت لا تزال هناك حقائق أخرى كثيرة فى حاجة إلى الفهم والإدراك ، قبل أن تزاح عنها الحجب والأستار .

والواقع أن الفهم والإدراك هما بداية الطريق إلى الحرية ، سواء كانت حرية الاختيار أو التعبير ، أو الوقوف إلى جانب الحق .

● والآن ماذا فى هذا الكتاب ؟

إننى سوف أعرضه هنا دون ما حاجة إلى تعديل فيه من تقديرات أو استنتاجات قد لا تكون سليمة تماما ، تاركا ذلك لفرصة أخرى قد تلوح لى . إذا شرعت فى ترجمته ترجمة كاملة . . . وكل ما سأفعله هو أن أتركه يقول بعباراته ما يريد أن يرويه .

ليست هذه سوى البداية

إن ذلك الرجل الأسمر ، الذى استطاع أن يعيد العزة والكرامة إلى الملايين من الشعب العربى ، ومعها الثقة بالنفس ، بعد أن كان من الشجاعة بحيث خاض حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، فأخرج بها مصر من حالة الشلل السياسى والعسكرى المهينة ، يكشف عن شجاعة أكبر إذ يكون أول من يفتح الطريق أمام سلام دائم ، فى هذا الجزء من العالم .

وهكذا ، فإن رجل الحرب ، يمكنه كذلك أن يكون رجل السلام ، الذى يقوم على الاعتراف بحق الوجود لجميع شعوب المنطقة ، بما فى ذلك الفلسطينيون والاسرائيليون على السواء .

والواقع أن التحدى الأكبر الذى يواجه السادات ، إنما يكمن على وجه خاص فى هذا المخطط العظيم ، الذى يهدف من ورائه بعد أن مهد له بحرب كان لا بد له أن يخوضها ، إلى النهوض بهذه المنطقة التى عاشت مآسى متعددة ، وتتفتح أمامها اليوم إمكانيات كثيرة .

وليس هناك من شك فى أنه ورث عن ناصر تركة مثقلة ، كان عليه خلالها أن يرفع عن كاهل بلاده عبء وجود عشرين ألفا من الخبراء العسكريين السوفيت ، هم من كانوا يعرفون باسم « قوقاز وادى النيل » . وبعد ذلك اتخذ مبادرته العسكرية ليمهد الوضع الدولى ، ثم استعاد لمصر المزايا الاقتصادية الضخمة من إعادة فتح قناة السويس .

لكن كل ذلك بالنسبة للسادات ليس سوى مقدمات لخطة أكبر وأشمل ، سوف يتمكن من إنجازها يوم يحقق للعالم العربى ذلك السلام العادل الذى ينشده ، فيتدبر هذا العالم بعده إلى مصادره الإنسانية والمالية ، فيوظفها من أجل تقدمه الاجتماعى .

التاريخ الحديث .. يبدأ بالعبور

■■ ولكم تحدث الكتاب والمعلقون والسياسيون عن العبور ، ومع ذلك فإن هذا الموضوع لم يستهلك بعد ، بل الأحرى أن يتعمق المؤرخون فى بحث آثاره ونتائجه ، وسائر الاحتمالات التى سوف تترتب عليه ، خلال أجيال كثيرة قادمة .

والمقصود بالعبور هو اجتياز القوات المصرية ، فى الساعات الأولى من عصر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، لقناة السويس ، وتزولهم على ضفتها الشرقية ، فما كادت الشمس فى ذلك اليوم تغرب وراء الأفق ، حتى كانت

أعلام مصر ترتفع فوق حصون خط بارليف التي دكها الجندي المصري دكا، وأزالها من الوجود.

ولم يكن قد مضى قبل حدوث هذه المعجزة سوى أيام قلائل. عندما راح قادة اسرائيل يتفاخرون بهذا الخط. بعد أن وصفوا قناة السويس بأنها أكبر عائق للدبابات في العالم، وهو ما جعلها ترفض قبل ذلك كافة الضغوط الدبلوماسية، للتراجع عن ضفة القناة.

ومع سقوط خط بارليف، إنهار التفوق العسكري الاسرائيلي، وراح الاسرائيليون يتبادلون فيما بينهم الاتهام بالتقصير. ولأن مصر عاشت سنوات كثيرة تعاني من وقع الهزائم العسكرية التي تعرضت لها، وخاصة هزيمة ١٩٦٧، فإن مجرد عبور القناة كان نصرا عظيما بالنسبة لها، لأنه انقذ شرفها وشرف العرب جميعا معها.

وفضلا عن هذا النصر العسكري الذي حققه السادات، فإنه جاء للعرب بنصر آخر لا يقل عن الأول أهمية، هو النصر السياسي. فبينما كانت افريقيا كلها تقريبا تقطع علاقاتها مع اسرائيل، إذا بالدول العربية الغنية بالبترول تجد نفسها للمرة الأولى في تاريخها متحدة متضامنة، تقف صفا واحدا وراء دول المواجهة، وتلجأ إلى استخدام سلاح البترول الرهيب.

■■ لن يكون هذا الرجل الذي صنع كل ذلك، ومن أين جاء؟

قرية في صميم دلتا النيل

■■ ذلك الرجل، الذي تلفت مصر في محنتها لتجده إلى جوارها، ويجده العالم العربي يعمل لصالحه، ليس بالشخصية الثانوية في الحركة الوطنية، حتى وإن كان البعض قد حاول أن يقلل من شأنه في بداية تولية السلطة في البلاد.

ويكفي للتعريف به، أن صوته هو الذي أيقظ شعب مصر يوم أعلن على موجات الأثير قيام ثورة ١٩٥٢، كما أنه هو الذي أشار اليه الملك فاروق بعد خلعه عن العرش ووصوله إلى منفاه في ايطاليا بقوله:

«إن الرئيس الحقيقي لهؤلاء الضباط الثائرين، والعنصر الخطير بين الذين قاموا بالانقلاب، هو ذلك الرجل الأسمر، الذي يدعونه أنور السادات».

أما البيت الذي خرج منه هذا الرجل، فهو مكون من دور واحد، ومبني بالحجر والطوب، وفيا حوله مساحة صغيرة مزروعة بأشجار البرتقال، يفصلها عن الطريق العام سور طويل. ولو لم يكن هناك ذلك الحارس الذي يقف أمام السور، لتبادر إلى ذهن أي زائر أجنبي أنه أمام بيت عمدة القرية.

وفي هذا البيت البسيط بالذات، يجيء السادات في الأوقات الحرجة التي تتطلب الاعتكاف والتأمل، ليكون أقرب ما يمكن إلى قلب مصر الزراعية التي عاشت آلاف الأعوام، قبل أن يتخذ أي قرار. إن الاجانب الذين يزورون مصر، يعتقدون عادة أنها ممثلة في القاهرة بكل تناقضاتها، بوصفها مدينة عالمية دخلت مجرى التاريخ المعاصر. والحقيقة هي أن مصر الحقيقية هي هذا الريف، الذي استطاع على مر القرون أن يقاوم كل محاولات الفتح والغزو، وأن ينتصر حتى وهو يخسر بعض معاركه.

من هنا، فإن السادات هذا هو ابن حقيق لمصر الحقيقية، التي لم يتغير فيها شيء على مدى التاريخ...

بودجورني

حكم مصر .. صعب جدا

■■ كانت مصر، وستظل، هي قلب الأمة العربية، بالمائة مليون عربي الذين يكونها، ورغم العبء الفادح الذي تحملته نتيجة الحروب الأربع التي خاضتها.

وحكم مصر معناه الالتزام بحل مشاكل لا حصر لها خاصة بها، وعدد آخر خاص بالعالم العربي، والعالم الأفريقي، ودول البحر المتوسط. وعندما خلف السادات ناصر في حكم مصر، أجرى حسابا سريعا لما تكلفته من الناحية المادية بعد هذه الحروب الأربع. تبين منه أن خمسة وثلاثين مليونا من مجموع عدد المصريين الذي يبلغ ثمانية وثلاثين مليونا، أصبحوا يعيشون في مستوى يشبه مستوى اللاجئين الفلسطينيين.

كان الاقتصاد المصري في الحضيض، ثم ظل يتدهور نتيجة لكل التراكمات القديمة، حتى بلغ في وقت ما درجة الصفر. وإذا كان السادات قد أعاد العزة الوطنية إلى شعب مصر، فإن العزة ليست كل شيء في حياة أي شعب. إن هناك قسوة الواقع الذي يتحتم معه مواجهة حساب المأكل والملبس وأعباء الحياة. وكيف يتأتى أن يحتمل الناس ذلك التضخم الشرس، وذلك المستوى الذي يزداد انخفاضا من الحياة، وتلك الديون الخارجية المكدسة، والساحة المزيلة من الأرض المنزرعة، وهروب العقول إلى الخارج؟

وإذا أضيف إلى كل ذلك غول البيروقراطية الذي يعرقل أي مبادرة، أصبح العبء، الذي يتحمله من يحكم مصر، أكبر مما يتحمله بشر. إن مشكلته الكبرى هي متطلبات الطبقات المختلفة التي تعيش على الأرض المصرية، وبصفة خاصة طبقة البرجوازية الوطنية، التي يخرج من بين صفوفها المثقفون والمعلمون والموظفون والعلماء والكوادر العسكرية.

والويل لمن يحكم مصر لو أن شبا

الفنداقي

ما تنقص من احتياجات هذه الملايين الثمانية والثلاثين، الذين سوف يتزايدون من الآن حتى عام ٢٠٠٠ م ليصبحون سبعين مليونا!

أمير الجزيرة .. يتولى الحكم

■■ ولقد كان الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للسادات.

ذلك أن العبء، الذي ألقى على كتفيه غداة وفاة ناصر كان ثقيلا ومزدوجا. فقد وجد في انتظاره قضيتين معقدتين، إحداهما موضوعية تتمثل في حالة اللاحرب واللاسلم التي ثلت مصر، التي تركها سلفه وجزء منها يحتله العدو، بينما العالم العربي الذي تنتمي إليه منقسم على نفسه أشد ما يكون الانقسام. أما القضية الثانية فكانت أثقل وأفدح، لأنها ترتبط بما يشبه الأساطير والأوهام، والقضاء على الأساطير من أصعب الأمور.

كان ناصر قد تحول في نظر الشعب المصري والعالم العربي إلى أسطورة، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن هذا الشعب يريد استمرار هذه الاسطورة في خليفته، فإذا لم يحدث ذلك، نظر إلى الأمر وكأنه عدم وفاء.

إن هذه الجماهير التي رأت في ناصر تجسيدا للرئيس الاسطورة، كانت مستعدة في عاطفة غامضة، جعلتها تتوقع أن يستمر السادات على مثل الصورة القديمة.

لكن السادات رجل واقعي، ولا يحب أن يبدو في صورة البطل الاسطوري، الذي ينفصل عن واقع الشعب. إنه يريد لهذا الشعب أن يتنفس هواء جديدا، ويريد له انفساحا في الرزق، وارتفاع مستوى الحياة، وأن يبدو في صورة البشر، أي في صورة الإنسان القابل للنقد، ذلك أنه نأى من تلك الاسطورة التي أحاطت بناصر، ونأى من تلك الصدمة المروعة التي أصابت الشعب كله، عندما فوجيء بالهزائم المتلاحقة التي حلت بمصر، لأنه كان سادرا في الأوهام.

ثم إنه يريد لشعبه حياة أفضل، ومن هنا كان عليه أن يتقدم حثيثا نحو تحويل الصورة، والعمل على تحقيق المتطلبات النافعة لهذا الشعب. غير أنه كان يعرف أنه محاط بالأعداء، ولو أنه نكل في أي خطوة من هذه السياسة، فسوف يبادرون إلى اتهامه وتأليب الجماهير عليه.

■■ لقد وضع السادات، عندما خرج من السجن عام ١٩٤٩، قصة رمزية بعنوان (أمير الجزيرة)، فيها ملامح فلسفية وسياسية تنم عن قدرة فائقة في تدبير الأمور. ومؤدى القصة أن أميرا كان يحكم جزيرة، ولكن مستشاريه كانوا من الأعداء الذين يدبرون الغدر به، فراحوا يدبرون له الدسائس والمؤامرات. لكن الأمير يثبت أنه أكثر منهم براعة ودهاء، فيحبط مؤامراتهم، وينصرف إلى أسعاد شعب الجزيرة.

المشاكل المتراكمة

عندما تولى الرئيس السادات الحكم، كان في مصر عشرون ألفا من «فوناز النيل». هكذا أطلق الشعب المصري هذه التسمية على الخبراء العسكريين السوفييت.

والواقع أن مصر كانت آخذة في التحول إلى معسكر سوفييتي. فعلى طول الطريق الساحلي، كانت تقوم ثلاثة حواجز يمنع المرور منها إلا بتصريح خاص. كان الحاجز الأول للأجانب، والثاني للمصريين الذين كان يسمح لهم بالمرور من اثنين، أما الثالث فيغلق في وجوههم، لأن الروس كانوا يعكرون وراءه.

وفي ميناء الاسكندرية كانت للسفن السوفيتية أرصفة خاصة، يحرم دخولها على المصريين. وحتى الطريق الصحراوي بين مصر والإسكندرية كان مغلقا أمام المصريين والأجانب، لأن السوفيت أقاموا بالقرب منه بعض المطارات.

كانت الأرض المصرية تحت تصرف السوفييت، محرمة على شعب مصر، وذلك لأن ناصر فكر ذات يوم في الاستعانة ببعض بطاريات صواريخ سام ـ ٢، دفاعا عن الاجواء المصرية المكشوفة التي تعرضت

لا تهاجم إسرائيل.

والواقع أن وضع مصر قد أصبح خطيرا في مطلع عام ١٩٧٠، عندما ابتدعت القيادات الإسرائيلية تكتيكا جديدا هو ما عرف باسم «الضرب في العمق». وبموجبه كانت الطائرات التي تحمل نجمة داود تطير على ارتفاع منخفض تخلصا من شبكات الرادار، وتتوغل في قلب مصر، وتضرب ما تشاء من أهداف. وقد وصل الأمر إلى حد أنها أغارت على بعض ضواحي القاهرة، وبثت الدمار والاحزان في ذلك الليل. بل يقال إن الطيارين كانوا يزحون باختراق حاجز الصوت فوق بيت ناصر حتى يحطموا زجاج نوافذه!

ذلك أن حكومة تل أبيب كانت مقتنعة بأن مصر لن تصمد طويلا أمام هذه المظاهرة العملية، ولكونها أصبحت مجالا مفتوحا للهزيمة، كما كانوا يقولون. وفي تقديرهم فإن مصر لن تلبث أن تطلب عقد صلح مع إسرائيل، بالشروط الفادحة التي سوف نفرضها عليها.

إن إسرائيل كانت عازمة على أن تهدد كرامة العرب جميعا، وتعمل على إذلالهم، لأنها رأت في ذلك «درسا» لهم سوف يظل عالقا بأذهانهم لثلاثة أجيال على الأقل. ولإزاء هذا الخطر، عمل ناصر على إدخال القوات السوفيتية إلى مصر.

ولقد بدا في ذلك الوقت، أن النزاع العربي الإسرائيلي قد فتح أبواب الشرق الأوسط على مصراعيها، أمام الوجود السوفيتي.

الهدف السوفيتي: لا دخل لمصلحة مصر فيه

كان زعماء الكرملين يفركون أيديهم سرورا، إذ تحقق حلمهم الأكبر، ألا وهو الدخول إلى الشرق الأوسط.

على أن الشيء الذي كان يشغل بالهم في ذلك الوقت، ولا يعملون الا لتحقيقه، هو الاحتفاظ بالمكاسب التي أنجزوها في هذه المنطقة، بغير أن يتعرضوا لأي مجازفة.

إنهم لم يكونوا في حاجة إلى الكثير من الذكاء، ليدركوا أنه إذا جاء السلام، أصبح الوجود السوفيتي في مصر غير ذي موضوع. لكنهم من ناحية أخرى كانوا يعرفون أن نشوب حرب في المنطقة، قد يعرض القوات السوفيتية المرابطة في وادي النيل للتورط فيها.

■■ من هنا كان الاهتمام الأكبر لموسكو، هو استبعاد هذين الخطرين معا: أي لا حرب ولا سلم. وهذا هو الوضع المثالي لتحقيق مصالح السوفييت وحدها.

ولكن، أين مصلحة مصر؟

لا أحد في الكرملين كان يعنى بالرد على هذا السؤال. ولو أن ذلك كان بداية الصدام المصري السوفيتي. وعندما كان بودجورني في زيارة رسمية لمصر، استقبلته الجماهير بهتاف له معنى: «نريد أن نحارب».

● لكن الزعيم السوفيتي رد قائلا إن الاتحاد السوفيتي يكفيه أنه أدخل الكهرباء المتولدة من السد العالي إلى بعض القرى المصرية.

ومع تكرار المحاولات التي قام بها السادات للحصول على السلاح الذي يمكن لمصر أن ترد به على الهجمات الإسرائيلية. وتلمس السوفييت من الاستجابة لها، فإنه اقتنع بأن الاتحاد السوفيتي لا ينوي أن يتدخل أي تغيير على حالة اللاحرب واللاسلم، الأمر الذي يمكنه منه غرس جذوره في التراب المصري، دون أن يتعرض لأية أخطار.

وكان التصوير الصحيح لهذا الوضع، هو أن موسكو تمنح مصر على الورق حمايتها. وفي نفس الوقت تفيد يديها جيدا، لتمنعها من القيام بأي حركة. وحتى المعاهدة السوفيتية المصرية، لم يكن هدف الكرملين منها الا الحفاظ على المكاسب السوفيتية. فلما كانت رحلة نيكسون إلى موسكو في ربيع عام ١٩٧٢، والوفاق السوفيتي الأمريكي الذي تضمن الاتفاق على إبقاء الوضع الراهن في الشرق الأوسط، كان ذلك هو الذي جعل الأمور تصل إلى الحضيض بين مصر والسوفييت.

ومنذ هذه اللحظة أخذ السادات يخرج الاتحاد السوفيتي من كل حساب يعد لحل المشاكل التي تواجهه.

رجل.. لا يعرف اليأس

■■ وإزاء كل هذه الصعاب، لم يعرف اليأس طريقه إلى قلب السادات، وإنما راح يسعى بصلابة للوصول إلى هدفه.

وفي ذلك الوقت، ظهر في صحيفة التايمز البريطانية تعليق سياسي لدوجلاس هيوم، جاء فيه أن السادات لم يعد أمامه سوى واحد من ثلاثة طرق:

١ إن الطريق الأول هو أن يعود إلى الحرب الشاملة مع إسرائيل. على أمل أن يسترد منها كل سيناء المحتلة أو بعضها، أو أن يسقط وهو يقاتل. والطريق الثاني أن يقبل الهزيمة. ويدخل في مفاوضات للصلح أو اتفاقية مؤقتة للسلام، سواء بطريقة مباشرة أو عن طريق وسيط. وأما الطريق الثالث، فهو الاعتراف بعجز مصر عن استعادة سيناء، مع رفض الاقرار بحق إسرائيل في احتلالها، كما فعلت الصين مع فرموزا».

●● لكن السادات كان يحاول تجنب كل هذه الطرق، مركزا اهتمامه على عنصر جديد، هو أن يلعب بالورقة الأمريكية. فما الذي جعله يغير سياسته تجاه الولايات المتحدة؟

لقد لخص هو بنفسه ذلك في الخطاب الذي القاه في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في العام الماضي في لاهور، إذ قال: «لقد التقيت عدة مرات مع هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة، وأمكنني أن ألمس أنها قد غيرت اتجاهاتها. بعد ذلك العصر المظلم الذي سادها أيام حكم جونسون، واعتقد الآن أن الولايات المتحدة تستهدف تحقيق العدالة، وأشعر أن الأمور ستكون سهلة معها»...

لقد تبلور هدف الرئيس المصري في شيء واحد، هو تحقيق السلام. فهو لا يجهل أن شعبه يتطلع إلى حياة أفضل، غير أنه يعرف تماما أنه لا يمكن أن يكون ذلك الرجل الذي يعقد سلاما غير مشرف. ومن هنا كانت سياسته التي بدت في بعض الأحيان مزدوجة:

■■ الحديث عن التحرير بالقوة، والسعي لإحلال السلام.

مشاعب القذافي

كانت ليبيا تعرف منذ أقل من عشرين عاما باسم (تربة الرمل)، بمعنى أنها لا تحتوي على شيء غير الرمال. ولذلك فإنها كانت من أفقر بلاد الدنيا على الاطلاق.

ثم جاء البترول مصادفة ومفاجأة. ولم يصدق الليبيون ولا الشركات أنه جاء. وبهذه الكثرة بالفعل.

ولما جاء معمر القذافي وجماعته الثورية، راح يتخبط في البداية بين النزعة الاسلامية، ومناهضة المذاهب المادية، والرفض المطلق لأي اتصال بالفكر الماركسي.

ثم طلع على العالم ذات يوم، بأنه عثر له على الحل السعيد لكل مشاكله، بما في ذلك ما يبطل مفعول القنابل الذرية، مركزا في صيغة ابتدعها بنفسه. وبعد ذلك أعلن أنه يسير على منهج ناصر، ولو أن الزعيم المصري الراحل لم يلبث أن ضاق به ذرعا، للمحاولات الفجة التي كان يريد من ورائها إقامة وحدة لا تستند على أي أساس.

وقد بدأت غرابة أطواره تتضح، عندما بعث برئيس وزرائه جلود إلى الصين، طالبا منها أن تهديه إحدى قنابلها الذرية. وبعد ذلك طلب من مصر أن تقدم إليه إحدى غواصاتها، ليغرق بها الباخرة البريطانية الملكة اليزابث.

وكلما رفض له أحد طلبا غير معقول، إذا به يرغي ويزبد، ويروح يهدد بالويل والثبور وعظائم الامور، وأن يتسبب في حدوث أزمة معقدة في العالم العربي، أو أن يفقد استقراره، ويذهب إلى مكان مجهول في الصحراء. وكان ذلك سلوكه، كلما رفضت مصر مشروعاته غير المدروسة للوحدة.

وعندما تولى السادات مقاليد الحكم في مصر، وجد في القذافي جارا كثير المتاعب.

فقد كان يرى ضرورة هدم القاهرة ، لمجرد أن فيها عددا من الأماكن التى تبيع الخمور ، أليست هذه المدينة هى عاصمة بلاد الجديدة ؟

كان السادات مشغولا فى هذا الوقت بالقضية الكبرى ، فلا استعداد لديه لبحث مشروعات القذافى الخيالية ، ولا الظروف تسمح بذلك العبث . لقد كان يسعى لجمع قوة الأمة العربية استعدادا لحرب الانقاذ التى خطط لها ، ولكن هذا الصغير يوشك أن يجرمه من ورقة رابحة تفيد القضية اكبر فائدة ، هى اكتساب العربية السعودية بكل قوتها وثقلها .

من هنا كان عليه أن يختار بين القذافى والملك فيصل ، فاختار الرجل الذى يمكن الاعتماد عليه .

عملية الشرارة

■■ كان كل شىء محسوبا ، وكل خطوة مرتبطة بالأخرى .

ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ٧١ ، وطرد العشرين ألفا من « قوقاز النيل » خارج مصر ، وإزالة الجفوة القديمة فى العلاقات بين جميع الدول العربية ، وجو الحريات التى عادت إلى البلاد .

وبدأ السادات يشعر بالثقة فى المستقبل ، وبسلامة الخطوات التى يقوم بها . ومع أنه فى مطلع عام ١٩٧٣ كان قد أرشك على إتمام الاعداد تماما للحرب ، الا أنه رأى أن يقوم بآخر محاولة للخروج من الموقف الذى وجدت مصر نفسها فيه ، بدون اللجوء إلى الحرب .

لقد كان يفكر منذ زمن فى أن أمريكا قادرة على التدخل ، لما لها من ثقل ، لصالح قضية السلام وإقامة العدل . فما الذى يمنع من التأكد من صحة هذه الفكرة ؟

وهنا كانت المهمة التى كلف بها مبعوثه الخاص حافظ اسماعيل ، الذى التقى وريتشارد نيكسون ، وعاد إلى القاهرة بانطباعات استخرج منها السادات ، ما أكد له أنه سائر فى الطريق الصحيح .

ثم جاء هنرى كيسنجر إلى الخارجية الامريكية ، بنظرياته المعروفة عن الظروف الساخنة التى تحمل دولة كبرى كالولايات المتحدة على التدخل فى قضايا تمس السلام العالمى ، وهى نظريات تتفق أيضا ورؤية السادات .

وانطلقت الشرارة ، ومعها جحافل القوات المصرية تعبر القناة ، فى ذات الوقت الذى بدأت فيه العمليات على الجبهة السورية . وما كاد الجنود المصريون يطأرن بأقدامهم أرض سيناء ، حتى اتصل السادات تليفونيا بالسفير السوفيتى قائلا :

« انى أبلغك أن أبنائى الآن على الضفة الشرقية للقناة .. نبلغ موسكو أننا سنكون فى حاجة إلى مساعدات كثيرة ، لاتمام العمل » .

فرحة الجماهير بثورة ١٥ مايو

والواقع أن السادات لم يضع فى خططه أن يعيد كل سيناء بهذه الحرب المحدودة ، وإنما كان يكتفى أن يحتفظ جنوده بمواقع لهم على الضفة الثانية للقناة . وهذا هو السبب فى أن الجيشين اللذين عبرا ، لم يلبثا أن اتخذا أوضاع الدفاع . ذلك أن الرئيس كان مقتنعا تماما ، بأن نجاحا عسكريا مصريا مهما كان محدودا ، يمثل نجاحا سياسيا هائلا ، ودفعة ضخمة للمعنويات فى مصر .

الحذق العسكرى والسياسى

ولقد كان فى استطاعة السادات أن يوقف العمليات العسكرية على الفور ، مكتفيا بتسجيل ذلك النجاح الساحق ، الذى جعل اسرائيل تترنح من هول صدمة المفاجأة ، والانهيار السريع الذى لحق بقواتها .

الا أنه لكى يجعل مصر تحصل على المزايا السياسية من وراء الحرب ، كان لا بد له أن يتركها تستمر بعض الوقت ، لكى يدرك الرأى العام العالمى جسامة الأخطار التى يتعرض لها العالم ، ومن ناحية أخرى لكى يتسع الوقت لحلفائه العرب ليتخذوا قرارهم باستخدام سلاح البترول .

■■ وبغير ذلك ما كان العالم ليتحرك ، ولا كانت أمريكا قد فطنت إلى أن الوقت قد حان لكى تتدخل .

إن وجهة النظر العسكرية البحتة تقول ، إن مصر كان يتعين عليها أن تستغل فرصة انهيار خط بارليف ، وتضرب القوات الاسرائيلية ضربات عنيفة ، قبل ان تتمكن هذه من اعادة تنظيم نفسها . غير أن القيادة المصرية كانت لديها ولا شك أسبابها الخاصة ، التى جعلتها تكتفى بتحطيم اسطورة التفوق الاسرائيلى ، الأمر الذى حمل الجيش المصرى على عدم التوغل فى عمق سيناء .

وسرعان ما أسفر هذا الحذق العسكرى السياسى عن نتائج كبيرة : ذلك أن الآلة السياسية بدأت حركتها ، فلم يكن يمر يوم الا وتقطع دولة افريقية علاقاتها باسرائيل ، تشجيع بذلك عليها ثمرات الجهود التى بذلتها فى هذه الدول سنوات طويلة .

وتدخل سلاح البترول المروع ، فارتعد لتدخله العالم .

ونجحت عملية الشرارة التى خطط لها السادات ، وحققت الاهداف التى حددت لها . لقد دخل هذه الحرب لانقاذ شرف الأمة العربية ، وخرج منها ايضا وهو محافظ على هذا الشرف .

إن الحروب لا يجرى الانتصار فيها على ساحات القتال فقط وإنما ينبغى أن يكون النصر أولا ، فى المجال السياسى . وقد حقق السادات النصرين معا .

التحدى الجديد الذى يواجه السادات

أصبحت القاهرة بعد الحرب مع اسرائيل كعبة أقطاب العالم . فقد جاءها الرئيس الامريكى زائرا ، ومن قبل ومن بعد تردد وزير خارجيته عدة مرات ، وجاءت الوفود الاقتصادية من العالم اجمع ، تعرض الأموال والمشروعات ، التى من شأنها تنشيط الاقتصاد المصرى على أوسع نطاق .

■■ فهل هذه هى مصر الجديدة التى يريدها السادات ؟

لقد أفصح عن أنه ليس بالرجل الذى يسعى وراء المذاهب والايديولوجيات ، وكل ما يريده هو ان يجعل بلاده تلمس الواقع العالمى ، ويتعرف العالم على واقع مصر .

إن البرنامج الذى يرتسم فى خيال السادات من أجل بلاده شامل فسيح ، ولكن خطوات تنفيذه تتطلب الكثير من البراعة ، والكثير من العمل ، وقبل كل شىء الكثير من الصبر .

إن عليه أن يغير الجو العام فى مصر ، ويصحح الاخطاء القديمة ، ويزيل المظالم التى وقعت ، وينتج الطريق أمام مصر لتتصل بالعالم كله . تتعامل معه على قدم المساواة ، فتفيد وتستفيد . لقد أنجز السادات الشىء الكثير ، ولكن اكثر منه ما زال ينتظر التنفيذ ، وهذا هو التحدى الجديد .

لقد عرف كيف يخرج بمصر من الشلل والجمود ، ويعبر بها السنوات الصعبة ، وأقام الدليل على أنه رجل الصمود ، فلم يضعف تحت ثقل القوة العسكرية للعدو الخارجى ، ولا تحت مؤامرات الأعداء فى الداخل

■■ فلماذا اليأس من المستقبل ؟ ●